تقليد آباء الكنيسة: هل هو ميراث أم موعد؟

الأب جوزف بوحجر اليسوعيّ*

١- بعض الملاحظات التمهيديّة

○ إنّ عنوان بحثنا يدلّ على أنّنا نقتصر هنا، بحصر المعنى، على آباء الكنيسة. فلن نهتمّ إذًا بما يُسمّى عادةً التراث العربيّ المسيحيّ، أي كلّ ما يختصّ بالمؤلّفات المسيحيّة القديمة والمكتوبة مباشرةً بالعربيّة.

○ وعلينا الآن أن نوضح معنى عنوان هذا البحث. يجب أن نُفهم هنا كلمة تقليد بالمعنى الحصريّ، أي بمعنى كلمة *Traditio* اللاتينيّة. ومعناها في الموضوع الحاضر هو تعليم آباء الكنيسة الذي نُقل من جيل إلى جيل، شفهيًّا (المواعظ أو المحاضرات الروحيّة) وخطّيًّا على السواء.

أمّا القسم الثاني من العنوان، فهو أن نعرف إن كان مَتْن هذا التعليم - وهو المرشد الأمين إلى فهم الأسفار المقدّسة كما يجب - ميراثًا أم موعدًا. لماذا نتكلّم على الميراث؟ لأنّ كلمة ميراث لا تخلو من الالتباس، إذ إنّها قد تُفهم بالمعنى الإيجابيّ أو بالمعنى السلبيّ. نفهمها هنا بالمعنى المحافظ والثابت، أي إنّها تعني هنا الوديعة التي يجب نقلها بأمانة من دون أيّ تغيير. فهي، بهذه الصفة، موضع تكريم، ولا يجوز تعديلها، لا بمعناها الإجماليّ ولا بل بما نسمّيه ماديّتها أيضًا، أي الألفاظ

(*) باحث في علم لاهوت الآباء. أستاذ في جامعة القدّيس يوسف، بيروت.

التي استعملها الآباء في الماضي. فيصبح ذلك الميراث تقليدًا مقدَّسًا تُضفي قدسيّته على تعليم المعلِّم في أيّامنا بُعدًا لازمنيًّا، وبالتالي، سلطة لا تقبل الجدل.

أمّا كلمة *Traditio* بصفتها موعدًا، فإنّها تتّخذ معنىً يختلف كلّ الاختلاف. وعندئذ لا يبقى التقليد ذلك الأثر الماضي، والشاهد على عصرٍ غابر يمكننا أن نتأمّل فيه بشيء من عزّة النفس، ونجد فيه بحنينٍ مجدَ أجدادنا في الإيمان، بل يصبح ما نسمّيه أثرًا غير تامّ يُدعى كلُّ جيل من المسيحيّين إلى مواصلة بنائه، من أجل إنجازه النهائيّ في آخر الأزمنة. ويُصبح الميراث أيضًا أُسسًا متينة يواصَل عليها في أيّامنا بناءُ الفكر اللاهوتيّ، في مراعاة الـ*Traditio* إلى جانب حرّيّة الإتيان بما قد ينتج من جديد عند قراءة الأسفار المقدّسة قراءةً تُواصَل من جيل إلى جيل.

٢- بعض الأمثال

إنّ نشر نصوص آباء الكنيسة، الذي يتمّ في بلداننا، يبدو مقيّدًا إلى حدّ بعيد، في ما يختصّ بإسهام المسيحيّين الحاليّين في معرفة آباء الكنيسة. ففي السنوات الأخيرة، بُذلت جهود كبيرة لنشر نصوص آبائيّة (في ترجمة عربيّة)، عند الكاثوليك وخاصّةً عند غير الكاثوليك. ولكن ما هي قيمة هذه المنشورات؟ في أغلبيّة الحالات، يُنشَر النصّ كما هو. إليكم بعض الأمثلة:

○ نشر الروم الأرثوذكس في لبنان، في سلسلة «آباء الكنيسة»، كتاب إفاغريُوس البُنطيّ في الصلاة، ونصَّيْن لمرقس الناسك[1]. ماذا نجد فيها؟ كلّ نصّ تسبقه مقدّمة. والأب سكريما (Scrima) هو الذي قدّم بإيجاز لنصّ إفاغريوس. لكنّه اكتفى بشرح بعض الحكم. أمّا نصّا مرقس، فإنّ الذي قدّم لهما هو راهب من القرن الثامن عشر، يُدعى نِيُوكليطُس الديونيسيّ،

(١) إفاغريوس البنطيّ/ مرقس الناسك، فصول في الصلاة والحياة الروحيّة، «آباء الكنيسة ١٥»، منشورات النور، بيروت، ١٩٨٣.

والمقدّمتان ترجمةُ مؤلَّفٍ عنوانه الفيلوكاليّة تمَّ نشره - في اليونان على الأرجح - سنة ١٧٨٢ . لا نجد في النصوص أيّة حاشية، مع أنّ مؤلَّفات إفاغريوس، إن اقتصرنا عليه، لا تُفهم إلاّ بمشقّة، وأنّ مؤلَّفه في الصلاة ليس من أسهلها. ما لنا إلاّ أن نرجع إلى الطبعة (عند بوشين Beauchesne) التي قام بها الأب إ. هاوشِهِرّ (I. Hausherr) لنلاحظ وفرة الشروح وطولها، التي أتبع بها كلًّا من الأحكام.

○ في لبنان أيضًا، نُشر العامَ ١٩٨٢ شرح لسفر التكوين منسوب إلى القدّيس أفرام (عن خطأ؟) وإلى كيرلُّس الإسكندريّ[٢]. يُقرأ هذا النصّ في أثناء الفرض في زمن الصوم الأربعينيّ عند الموارنة. نجد فيه مقدّمة علميّة، ولكنّنا لا نجد في المتن أيّة حاشية (باستثناء حواشي نقد النصّ) يمكن أن تُنير غير العارفين.

○ لم نَرَ في مصر أيّ نصّ آبائيّ معلَّق عليه. إذ إنّهم ينشرون النصّ كما هو، وأحيانًا ما ينشرون مخطوطًا من دون أيّ تحقيق للنصّ. لكنّ هذه النصوص تُوزَّع توزيعًا وافرًا، وهذا ما يساعد على معرفة التراث المشترك. أمّا أن يكون هناك تدرُّب حقيقيّ على فكر آباء الكنيسة، فنشكّ في ذلك.

وفي مجال الدراسات الآبائيّة، لا بدّ من ذكر كتاب متّى المسكين عن أثناسيوس، حقبة مضيئة في تاريخ مصر، بمناسبة مرور ستّة عشر قرنًا على نياحة القدّيس أثناسيوس الرسوليّ[٣]. بالرغم من وجود بعض النقائص (على سبيل المثال، تبدو الدراسات التي يستشهد بها قديمة)، نرى أنّه مؤلَّف تامّ إلى حدّ ما، سوف يساعد على فهم القدّيس إثناسيوس فهمًا أفضلَ. ومن المؤسف أن لا نجد عددًا أكبر من المؤلَّفات في العربيّة بهذه القيمة. ولكنّ قيمة هذا المؤلَّف تكمن، من وجهة نظرنا، في كونه

---

(٢) تفسير لسفر التكوين، منسوب إلى القدّيس أفرام السريانيّ/ قدّم له ونشره الأب يوحنّا تابت، الكسليك - لبنان، ١٩٨٢.

(٣) مطبعة دير القدّيس أنبا مقار - وادي النطرون، ١٩٨١.

يساعدنا على اكتشاف آليّة الصلة القائمة بين إنسان من القرن العشرين وإنسان آخر من القرن الرابع. لكليهما انتماء دينيّ واحد، وهما متحدّران من البلد نفسه.

حين ننظر عن كثب إلى تأليف الكتاب، نُؤخذ بقَبْلِيَّته (son a priori) العقائديّة، علمًا بأنّ هذه القَبْليّة هي مجد الماضي، الميراث. في العنوان، نجد هذه الجملة: «حقبة مضيئة في تاريخ مصر»، وهذا ما ينطق بالكثير عن حالة العصر الذهبيّ التي يتميّز بها الماضي. يُقسم المؤلّف إلى قسمين متساويَين، يبحث الأوّل في سيرة أثناسيوس والثاني في فكره اللاهوتيّ. وكلّ ذلك تتبعه فهارس مُنسّقة وخرائط وجداول زمنيّة. لكنّ المؤلّف، وإن كان وافيًا إلى حدّ ما، هو، قبل كلّ شيء، مختارات من نصوص لأثناسيوس (ولآباء آخرين) وشواهد لكتّاب «عصريّين». إنّه أمر معبِّر أن يُتبع كلّ فصل بخلاصة ليست سوى سلسلة من الإثباتات (أو القضايا؟) (١، ٢، ٣، ...). هذا ما يذكّرنا، ولا شكّ، بالمَجْدَلات القديمة.

يرى مُنتّى المسكين أنّ الأب ألُويس غريلْماير (Aloys GRILLMEIER) قد ارتكب جريمة اعتداء على أثناسيوس، لأنّه، في الصفحة ١٨٣ من كتابه المسيح في التقليد المسيحيّ، كتب: «بالرغم من حالة مصادرنا التي لا تُرضي إلاّ قليلًا، فإنّ الأريوسيّة، وهي الأقرب إلى الإسكندريّين من حيث التاريخ، تقدّم إلينا معلومات يمكننا، بصورة معقولة، أن نعتبرها ثابتة عمّا يجب أن تعنيه عبارة «علم المسيح الكلمة/البشر». بحسب علم المسيح هذا، على الأقلّ في الصيغة الأولى هذه، يكون الكلمة والبشر متّحدَين مباشرةً بالمسيح، ولا يكون للمسيح نفس بشريّة»(٤). لم تتأخّر ردّة فعل منّى المسكين، فقد كتب: «لا يُصدَّق (ولقد

(٤) *Christ in the Christian Tradition*, A.R. Mowbray & Co. Ltd. 1965: «*Despite the difficult state of our sources, Arianism, which stands nearest in history to the Alexandrine, gives a reasonably certain indication of what can be understood by «Logos-sarx christology». Such a christology, at least in this first form, assumes that the Logos and the flesh are directly conjoined in Christ and that Christ has no human soul.*

تخطّى العقل) أن نرى لاهوتيًا كاثوليكيًا، لا بل راهبًا، يتّهم أثناسيوس واللاهوتيّين الإسكندريّين بالاتّفاق مع الأريوسيّين لعدم الاعتراف بأنّ المسيح كانت له نفس بشريّة».

ما نحفظه من ذلك «الحادث» ليس هو قراءة الأب متّى نصّ الأب غريلْماير قراءةً سيّئة، بل هو المدلول الذي يجب أن نطلقه على هذه القراءة السيّئة. فقد أهمل تمامًا العبارة المعترضة «على الأقلّ في الصيغة الأولى هذه»، وهي تضع قول الأب غريلماير في إطار التطوّريّة اللغويّة التاريخيّ وتُكيّفها. ذلك بأنّ هناك إجماعًا على القول إنّ أثناسيوس ونيقياويّين آخرين لم يهتمّوا بنفس المسيح البشريّة إلاّ في وقت لاحق، في خطى أقوال أبُوليناريُوس اللاذقيّ. فما يحذفه الأب متّى (ربّما عن لاوعْي؟) هو الإطار التاريخيّ بكامله. ففي نظره، يجري كلّ شيء كما لو لم يكن لأثناسيوس سيرة شخصيّة ولم يتطوّر. وهذا ما يدلّ على موقف لاتاريخيّ بالنسبة إلى الماضي المجيد وإلى أبطاله.

٣- موقفان من آباء الكنيسة

بعد أن بحثنا في تلك الأمثلة، يخيَّل إلينا أنّ هناك اتّصالاً مباشرًا تامًّا بالماضي، إن على مستوى النصّ أو مستوى كاتبه على السواء. كأنّ هذا المؤلّف الآبائيّ أو ذاك، أو الأب نفسه، لا يرقى عهده إلاّ إلى بضع سنوات، أو يكاد. وهذا الموقف يُعرف عن طريق ميزتَين: ثمّة أوّلاً ما نسمّيه الاتّصال وعدم اتّصال آباء الأمس بمسيحيّي اليوم. وثمّة ثانيًا إنكار التاريخ. إنّ كلّ كثافة التاريخ حُذِفت تمامًا وكأنّ البُعدَ التاريخيّ لم يُحسَب له حساب.

٤- الاتّصال وعدم الاتّصال

هناك اتّصال قائم بين آباء الكنيسة و«لاهوتيّي» الشرق الأدنى في أيّامنا. وهذا ما يظهر قبل كلّ شيء في اللغة، إذ إنّنا، حين نطالع النصوص التي أُنتجت في السنوات الأخيرة، لا يسعنا إلاّ أن نلاحظ وجود

مفردات مشتركة بين الآباء وهؤلاء «اللاهوتيّين». وهذه اللغة «الموروثة» التي أورثها الآباء، هي لغة مقرَّرة ومُقَدَّسَة. وهي قد أصبحت مقياسيّة، حتّى إنّها تكاد أن تستبعد كلّ صيغة أخرى من صيغ التعبير. والدليل الأوّل على ذلك يجب البحث عنه في الشرع الكنسيّ عند الكنائس الشرقيّة غير الكاثوليكيّة. وهذا الشرع ليس هو، في الحقيقة، غير القوانين الجديرة بالتقدير، التي أصدرتها المجامع القديمة، أو مجموعات قديمة ما زالت سارية المفعول. أمّا الدليل الثاني فنجده في استخدام الكتّاب العصريّين، ولا سيّما الأقباط، الشواهد الكتابيّة، وهو استخدام مألوف وتقليديّ. وهذا ما يُسمَّى في علم الآباء «الدليل بالأسفار المقدّسة»، حيث تُدعم صحّة ما قيل بالاستناد إلى نصّ من نصوص الكتاب المقدّس.

ولكن هناك أيضًا عدم اتّصال الآباء بالكتّاب الكنسيّين العصريّين. إنّه يعود، قبل كلّ شيء، إلى أنّ لغة الآباء كانت لغة زمنهم الشائعة، لغة المفكّرين المعاصرين، بما فيهم الوثنيّون. فليس هناك فرق، في الواقع، بين مفردات غريغوريوس النيصيّ وتفكيره الفلسفيّ والعلميّ، وتفكير معاصره لِيبانيوس، خطيب أنطاكية الوثنيّ. هل يجوز لنا أن نطبّق هذا على زمننا؟ إن أمعنّا النظر في نصوص عصرنا، نلاحظ فرقًا كبيرًا بين المفردات «اللاهوتيّة» والمفردات المستعملة في دراسة موضوع غير دينيّ.

ولكن ثمّة حالة ثانية من عدم الاتّصال. إذ إنّنا نلاحظ تطوّرًا في اللغة اللاهوتيّة بين الآباء الأوّلين والآخرين. فلم تكن لغتهم إذًا لغةً جامدة، بحيث إنّ تفكيرهم كان يمكّنهم من إيجاد ألفاظ مُسْتَحْدَثَة للتعبير عن المفاهيم الجديدة التي يكتشفونها. وأيًّا كان تقديرهم للذين سبقوهم، لم يكونوا يتردّدون في تغيير الكلمات، في حال كانت غير وافية للتعبير بدقّة عمّا يريدون أن يقولوه. إنّ كلمة *Homoousion* (مساوٍ في الجوهر)، التي تبنّاها المجمع النيقاويّ، شغلت فكرَ أكثر من أسقف، لأنّها لم تَرِد في الكتاب المقدّس، بل وردت عند الغنوصيّين الذين كانوا هراطقة، أو عند دِيُونِيسِيُوس الإسكندريّ الذي حام شكّ في صحّة معتقده يومًا من الأيّام. ومع ذلك، فإنّ هؤلاء الأساقفة، بعد أن تخطّوا تحفّظاتهم (وتأثّروا

بتشجيع الإمبراطور)، جرؤوا على إدخال كلمة جديدة في مفرداتهم الصحيحة، علمًا بأنّها تعبّر تعبيرًا وافيًا عن وجه من وجوه الحقيقة اللاهوتيّة. هل نجد في أيّامنا هذا الروح؟ أوليس هناك ميل إلى قدسنة لغة الآباء القدّيسين، وبالتالي إلى تجميدها: «هكذا كان أثناسيوس وكيرلّس يتكلّمان». يخيَّل إلينا أنّنا في مجمع من مجامع الماضي.

لماذا كلّ ذلك؟ لماذا نَقْل مؤلّفات الآباء الحرفيّ هذا؟ لماذا قدسنة اللغة الآبائيّة هذه؟ بأيّ شيء نكون غير أمناء على فكر الآباء، إن أعددنا درسًا في التفكير اللاهوتيّ يأخذ بعين الاعتبار لغة التفكير غير الدينيّ المعاصر؟ هل نقلّل من احترامهم، إن شرحنا، في حواشٍ، معنى هذه العبارة أو تلك، بوضعها في إطارها التاريخيّ، وبإظهار إمكاناتها المحدودة؟ إنّها أسئلة تستحقّ، في نظرنا، أن تُفحص عن كثب، وأن يُجاب عنها على قدر الإمكان.

٥- إنكار التاريخ

هنا لا يسعنا إلاّ أن نلاحظ فقدان الحسّ التاريخيّ. فما سبب ذلك؟ من جهة، لأنّه من شأن التقليد الثابت الذي لا يتزعزع أن يقوم بدور السور الذي تَعتمد عليه جماعة أقلّيّة تشعر بأنّ وجودها معرّض للخطر، ومن جهة ثانية، فالسبب هو المسيحيّة نفسها. إنّ التجسّد هو عقيدة أساسيّة في المسيحيّة. فهي تمثّل، بمعناها الأعمق، ولوج اللازمنيّ (ابن الله) في زمن البشر. لكنّ هذه العقيدة هي التي تُقبَل حقًّا بصعوبةٍ قصوى، لما فيها من مستلزمات ونتائج. ذلك بأنّ المسيحيّين، في الشرق والغرب على السواء، نفروا دائمًا من التسليم بأنّ كلمة الله قد أصبح حقًّا إنسانًا مثلنا في كلّ شيء، ما عدا الخطيئة. إذ إنّنا نجد، في تاريخ الكنيسة، عدّة أمثلة من المحاولات التي تمّت للتخفيف من مدى تأنُّس الكلمة التامّ. نقول صراحةً إنّ كثيرًا من المسيحيّين يجدون ارتياحًا أكبر في التسليم بأنّ المسيح هو، أوّلًا وقبل كلّ شيء، إلهيّ بكلّيّته، وبأنّه ليس بشريًّا إلاّ بشكل ثانويّ. نستعرض الآن بسرعةٍ تلك المحاولات.

o النسطوريّة تَحلّ مشكلة الانزعاج الذي قد يشعر به المرء حيال ناسوت ابن الله، فتكلّم على الإنسان المتَّخَذ (*homo assumptus*). وهي تحمّل هذا الإنسان العارَ الذي يلازم مواطن الضعف الخاصّة بطبيعتنا البشريّة، حاميةً بذلك «سموّ» الابن المتجسّد. فاللاهوت هو الذي يدخل حقًّا هنا في الحسبان.

o المونوفيزيّة تحلّ مشكلة الطبيعتَيْن، تاركةً اللاهوت يستوعب الناسوت. ولذلك تبقى طبيعة واحدة.

o إنّ الخلقيدونيّين، المدافعين عن طبيعتَيْن في المسيح، سرعان ما وجدوا أنّه يصعب إدارتهما في وقت واحد. ثمّ إنّ اللاهوت هو أسمى بكثير. نلاحظ هنا أنّ أثناسيوس نفسه وكيرلّس الإسكندريّ نفسه شعرا بانزعاج حيال ناسوت الكلمة المتجسّد التامّ. فوجد أثناسيوس، على سبيل المثال، أنّ موت المسيح على صليب هو أكرم من موته شيخًا في فراش. في الغرب (وربّما في الشرق أيضًا)، ساد حتّى زمن غير بعيد، نمط من الوعظ ومن التفكير بين المؤمنين البسطاء، يفضّل في المسيح لاهوته حتّى إفراغ ناسوته.

o إنّ اللافساديّة (وهي بدعة ظهرت في القرن السادس، وكانت تقول بأنّ مَواطن الضعف عند المسيح - تعب وعطش، إلخ - لم تكن حقيقيّة، بل ظاهرة) كانت تقترح حلًّا سهلًا في إدارة طبيعتَي المسيح. لا يُنكَر ناسوت المسيح، لكنّه سيكون كما كانت بشريّة آدم قبل الزلّة، أي بشريّة آدم في فردوس عَدْن. والحال أنّ فردوس عَدْن لا ينتمي إلى هذا العالم، فهو إذًا لا ينتمي إلى التاريخ، كما أنّ آدم الذي كان يعيش فيه لا ينتمي إلى التاريخ. فلم يبقَ إذًا لناسوت المسيح أيّ شيء بشريّ، بما أنّ هذا الناسوت أصبح خارج التاريخ. جدير بالذكر أنّ فريق اللافساديّين كان يضمّ بعض الخلقيدونيّين وبعض المونوفيزيّين. هذا وإنّ المذهب اللافساديّ لم يمت؛ ففي إمكاننا أن نلقاه اليوم أيضًا في مؤلّفات بعض المسيحيّين الشرقيّين (وربّما الغربيّين أيضًا) ومواعظهم.

فالبُعد اللاهوتيّ هو الذي يخرج ظافرًا من امتحان الطبيعتَيْن، علمًا

بأنّ هذه النظرة تبدو الأبسط والأسمى والأكثر تشجيعًا للناس. لكنّ البُعد الإلهيّ يعني البُعد اللازمنيّ. وحيثما يغيبُ الزمن يغيبُ التاريخ. وحيثما يغيبُ التاريخ، لا تكن هناك مسيحيّة حقيقيّة.

٦- سؤالان

في هذه الأحوال، أي في غياب كلّ بُعد تاريخيّ، يجوز لنا أن نطرح على أنفسنا هذا السؤال: ماذا تصبح مقياسيّة فكر الآباء التعليميّ، لا في المطلَق وحسب، - كمرجع عقائديّ - بل في التعبير عنه المتأثّر بتاريخ تلك الحقبة وثقافتها؟ إن أجبنا أنّ كلّ شيء هو قياسيّ، بما فيه الظروف الثقافيّة والتاريخيّة، قَبِلنا بتبرير كلّ نقل حرفيّ وترداديّ لذلك الفكر. وفي هذه الحال، لا حاجة فعلًا إلى حواشٍ تفسيريّة أو إلى مقدّمات طويلة.

ولكن ذلك يحملنا على طرح سؤال ثانٍ: هل يبقى في أيّامنا مجال لتفكير لاهوتيّ مُشبَع بالتقليد، ويكون، في الوقت نفسه، مستقلًا عنه للتعبير عن الفكر القديم في لغة جديدة ومعاصرة؟

٧- حلّ ممكن

إليكم حلًا ممكنًا: ألا يجب أن نقترح على لاهوتيّي الشرق أن يستوحوا من أسلوب معاني الكتاب المقدّس، الذي ضبطه أوريجانيس في درس الكتاب المقدّس؟ هذا يعني أوّلًا أن نواجه نصّ الكتاب المقدّس أو نصّ الآباء، على مثال أوريجانيس، كما نواجه نصًّا أدبيًّا، من دون أن نقلّل من قيمته الذاتيّة. فإنّ أوريجانيس يُعتبَر أبا نقد النصوص وقد أجاد فيه. وهذا يعني أيضًا أن نعترف، على مثال أوريجانيس، بأنّ بعض النصوص تطرح مشكلة فَهْم، تعود جزئيًّا إلى قِدَمها. إنّ هذا الأسلوب يمنعنا أن نجمّد النصّ ونجعله في عداد المستحاثات. وبالعكس، إنّ النصّ لا يزال حيًّا ويكلّمنا مجتازًا القرون. على كلّ حال، إذا صحّ أنّ أوريجانيس اعتبر هذا الأسلوب مقبولًا وأنّ كبار القدّيسين قد اتّبعوه،

أفيكون هناك أيّ مانع على صعيد الإيمان من العودة إليه؟ من فوائد هذا الحلّ أنّه يتمتّع بضمانة كبار أقطاب علم الآباء.

٨- الخاتمة

ما هو إذًا فكر آباء الكنيسة في نظر مسيحيّي بلداننا؟ هل هو وديعة جليلة يجب نقلها من جيل إلى جيل، أم رأسمال يجب استغلاله واستثماره على أفضل وجه؟ أمّا الآن فيبدو لنا أنّ هذا الفكر، ليس في نظر الكثيرين، سوى وديعة يريدون أن ينقلوها سليمة، مع أنّها كثيرًا ما شُوِّهَتْ على مرّ القرون، من دون أن يشعر الناس بذلك.

(ترجمة أ. صبحي حمويّ).